
www.kotobarabia.com
إبراهيم سعفان
www.kotobarabia.com
هدم اللغة العربية .. لماذا؟

هدم اللغة العربية .. لماذا؟

إبراهيم سعفان

إهداء

إلى

هالة وشيرين

الأمل والمستقبل

فهرس

الحضارة العربية تتحدى..

منذ بزغ فجر الإسلام، وانتشر بسرعة بين الناس وهـ ـو يحارب بعنف للقضاء عليه، وما أكثر ما لاقى محمد ﷺ من عنف من الكفار حتى يقضوا على الإسلام ورسوله.. ولكن ا هزمهم. وقد أخذت مظاهر الهجوم على الإسلام صورا شتى: عسكرية واقتصادية وفكرية.. ففي مكة بعدما يئسوا من تعذيب أتباع محمد عليه الصلاة والسلام فكروا في حصارهم اقتصاديا، فقرروا مقاطعة محمد عليه السلام وأتباعه، فلا يشتري منهم أحد ولا يبيع لهم.. ولما فشل هذا الحصار الاقتصادى عادوا إلى الحرب، ولكن ا كتب لنبيه الانتصار ولدينه الانتشار، **يريدون أن يطفئوا نور ا ـ بأفواههم ويأبى ا ـ إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** .

ولم يقف محمد عليه السلام بدعوته عند حدود مكة والمدينة، ولكنه دعا إليها العالم كله، فأرسل رسائله وسفراءه إلى الملوك، ويبدو أن بعض السفراء الذين أوفدهم النبى عليه الصلاة والسلام إلى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا إعراضا وأذى؛ مما جعل النبى يعد العدة للجهاد، وإن كانت موجة الفتوحات العربية لم تشتد وتتسع إلا بعد وفاة النبى نفسه سنة ٦٣٢، وشهد التاريخ معارك تسجل الانتصارات التي حققها المسلمون الأوائل بقيادة الخلفاء الراشدين من أجل انتشار الإسلام، وبدت خسارة الكنيسة المسيحية واضحة جلية؛ إذ فقدت بلادا ارتبطت بها أصول المسيحية الأول؛ مثل بلاد الشام ومصر، فضلاً عن بلاد أخرى كانت بمثابة أعضاء أساسية في العالم المسيحي؛ مثل شمال إفريقيا وإسبانيا".. وقد أقبلت نسبة كبيرة من هذه البلاد على الإسلام عن اختيار وإرادة حرة، وقد شهد بذلك بعض المستشرقين.

إن انتصار الإسلام الساحق، وانتشاره السريع في بلاد تعتبر مراكز هامة بالنسبة للغرب أمر أرق قادة الغرب ومفكريهم؛ فقد قال المارشال بولدوين في الاجتماع السنوي الثاني والعشرين للجمعية الأمريكية الكاثوليكية التاريخية الذي عقد عام ١٩٤١؛ بأن العالم المسيحي، أو أجزاء هامة منه على الأقل؛ ظلت تواجه خطر عالم إسلامي معادٍ لفترة تقرب من الألف سنة، تمتد من تاريخ وفاة النبي عام ٦٣٢ حتى تاريخ انهيار آخر هجوم عثماني أمام فيينا عام ١٦٨٣".

ثم أضاف: "إن الإسلام كان الدين الوحيد الذي جاء عقب المسيحية، وغنم منها مناطق شاسعة، وكبدها هزائم عسكرية كبرى..".

صورة الإسلام في فكر وأدب الغرب:

وقد كان نتيجة هذا الصراع القديم بين الشرق المسلم والغرب أن شوه بعض كتاب الغرب صورة الإسلام. وإذا نظرنا إلى كتاباتهم خاصة في القرن الثامن عشر؛ نجدهم يرون أن الإسلام من اختراع محمد الذي هو أحد أقانيم الثالوث، وهو رئيس هيئة كبيرة من الآلهة الأقل شأنًا مثل جوبين، وأفلاطون، وفرعون، وبارتون، وكاهو، ومارغوت، وبالاكوين، وسوراب، وبابيات، ويعلز بوب وغيرهم، "ويوصف المسلمون بأنهم قوم ذوو كهنوت منظم رئيسه بابا، وتقام عندهم الصلوات في محمديات (أي جوامع)، أو معابد من قبل رهبان أو كهنة بشكل شبيه بالطقوس المسيحية.. وباختصار فإن الإسلام يرى بمنظار مسيحي (ثالوث، رهبان) بغرض إظهاره وكأنه تشويه للمسيحية) ([1]).

وكما ساد هذا المفهوم في أوروبا ساد أيضا في الأدب الإنكليزي، حتى أوائل القرن الثامن عشر عن محمد والمسلمين؛ "ففي الحكايات الشعرية الإنكليزية القديمة والمسلسلات المسرحية؛ يظهر السراسينيون دائما كوثنيين لهم إله اسمه محمد، هو واحد من عدد الآلهة، وهذا أمر متوقع طبعا؛ لأن ذلك المفهوم كان جزءا من التراث الأوروبي، ولأن الأدب الإنكليزي المبكر كان مقلدا إلى حد كبير للأدب الفرنسى الأكثر ازدهارا" ([٢]) .

"لكن الغريب أن كلمة سراسين غالبا ما استعملت لتضم عناصر أوروبية كالسكسون؛ بل إنها عنت أي شعب وثني، وقد كان من السهل بعد ذلك أن يعتقد مؤلفو ذلك الأدب وقراؤهم أن محمدا كان معبود جميع الوثنيين، بغض النظر عن التسلسل التاريخى أو البعد الجغرافي. وهكذا فإننا نجد فرعونًا في واحدة من المسرحيات الدينية الإنكليزية يحض أتباعه للصلاة لماهوند (محمد)؛ كي يعينهم في محنتهم. ونجد القيصر أغسطس يقسم بنفس الإله ويصلي له، بينما يدافع هيرود عنه، ويهدد كل من لا يؤمن به، والمعنى الحديث للكلمة الإنكليزية Manmet: أي صنم أو دمية تعود جذوره إلى هذه الحقبة التاريخية، والكلمة مستمدة طبعا من اسم النبي محمد، وفكرة أنه كان يعبد أدت إلى فكرة أنه كان صنما، ومن هذا المعنى تفرعت المعاني الأخرى. وقد أعطت هذه الكلمة للغة الإنكليزية Maumetwy Mshometry الكلمتين تعنيان "عبادة الأوثان"، أو الدين الباطل، وقد ظل هذا المعنى مستعملاً حتى أواخر القرن الخامس عشر، بدليل وروده في قصيدة لكاكستون بعنوان جود فري god frey. أما قصيدة

---

[1]) محمد عصفور: صورة الإسلام والمسيحية في الأدب الغربي حتى القرن الثامن عشر: عالم الفكر، المجلد الثامن، ١٩٧٨.

[2]) محمد عصفور: المصدر السابق.

جون لدجيت المسماة: "عن محمد النبي المزيف وكيف أكلته الخنازير وهو سكران". فتعطينا أول ترجمة كاملة عن النبي في الأدب الإنكليزي.

ففي مدى مائة وأحد عشر بيتًا؛ تمكن لدجيت من حشر معظم الأساطير الخيالية التي كانت سائدة في زمانه (١٣٧٠-١٤٥١)؛ إذ تصور القصيدة النبي على أنه كان نبيا مزيفًا وساحرا وضيع الأصل، وأنه درس الكتاب المقدس في مصر، وأقنع السيدة كارديجان (خديجة) من قلاد كوردزان (قريضة) كي ترضى به زوجا، مستعملاً أساليب الإغراء الخبيثة (الأبيات ٦٧ - ٦٩)، وتقرأ كيف أنه ادعى أنه هو المسيح (٧٥)، وقاد شعبه إلى الخطأ العظيم، ونقرأ أنه كان مصابا بالصرع، ذلك الذي فسره بقوله إن: "جبريل قد أرسل إليه من علياء السماء من قبل الروح القدس؛ كي يعلمه، وظهر عليه الملاك يطلعه على بهائها، وأنه لم يستطع الوقوف في حضرته (٨٧ - ٩١). كذلك تجد في هذه القصيدة كما هو متوقع أساطير الحمامة التي تأكل الحب من أذن محمد والثور، لكن الثور هذه المرة لا يحمل القرآن على قرنيه؛ بل يحمل جرار اللبن والعسل" ([٣]).

ولم يكن اتجاه تشويه الإسلام وقفًا على الأدب الإبداعى فقط، ولكن نرى هذا التشويه في الكتب المترجمة. "ففي عام ١٦٤٩ قام ألكساندر روس - كما يعتقد أكثر الباحثين- بعمل أول ترجمة إنكليزية للقرآن، من خلال الترجمة الفرنسية التي قام بها أندريه سور دوربيه، والتي نشرت في ذلك العام، وعنوان ترجمة روس واضح الدلالة: قرآن محمد، ترجمه من العربية للفرنسية سور دوربيه.. ولم يكن روس واثقًا من أن الأباطيل واضحة؛ لذا كتب روس تحذيرا لازما أو نصيحة، وقد ضمن هذا التحذير في الترجمة ذاتها.. يبدأ التحذير: "أيها القارئ الكريم، ها قد وصل الدجال الكبير أخيرا بعد ألف سنة عبر فرنسا إلى إنكلترا، وقد تعلم قرآنه، ذلك الخليط من الأباطيل.. إنه مشوه كأبيه، وفيه من الهرطقات بقدر ما في رأي صاحبه الشائه من قشرة، إنه يتكلم اللغة الإنكليزية.

ويرى الأستاذ محمد عصفور أن هذه الصورة خلال القرنين الأخيرين قد تكون تغيرت الآن، مع فقد الروح العلمية وزوال التطرف الديني" ([٤]).

---

[3]) محمد عصفور: المصدر السابق.

[4]) صورة الإسلام والمسلمين في الغرب في القرن الثامن عشر: مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، ١٩٢٨.

الغزو الفكري ومحاربة الإسلام:

ورغم أن الإسلام يحترم جميع الأديان، ويدعو إلى التسامح والإخاء، إلا أن رجال الكنيسة لم يستطيعوا حتى نهاية العصور الوسطى أن ينسوا الخسارة التي لحقت بهم وبكنيستهم؛ نتيجة انتشار الإسلام؛ مما جعلهم يشعرون دائما بالرغبة في الانتقام من الإسلام والمسلمين، فكانت الحروب الصليبية التي استمرت مائتي عام، وقد كان الباعث الديني من أسباب قيامها... ولما باءت هذه الحروب جميعها بالفشل، ولم تأتِ بالنتيجة المرجوة، وكتب للإسلام الانتصار؛ استفاد الغربيون من حروبهم الصليبية، وكان من نتائج هذه الحروب "أن الكنيسة أخذت تؤمن منذ بداية القرن الثالث عشر بعدم جدوى الحملات المسلحة لنشر المسيحية بالقوة، فاتجهت نحو البعثات التبشيرية... ولم تلجأ للكنيسة الغربية إلى هذه الخطوة الجديدة إلا بعد أن رأت عبث الجهود والتضحيات التي بذلتها في الحروب الصليبية، وكيف أنها ضحت بالأرواح والأموال دون أن تحصل على نتيجة واضحة، وكان أن بدأت جهود المبشرين للتبشير" ([5]). لقد وجه التبشير بضراوة إلى الإسلام بالذات؛ لأن معتنقيه يعضون عليه بالنواجذ؛ لأنه القوة الدافعة إلى الاستقلال والثورية في وجه الطغيان ([٦]). ودعا الغرب إلى التبشير لغزو العقول، وقد ربط هدف محاربة الإسلام بين التبشير والاستعمار والاستشراق.

وقد نجح الاستعمار في تشكيل عقول تلاميذه الذين جندهم من البلدان الإسلامية نجاحا كبيرا لم يتوافر له خلال مائتي عام من الحروب الصليبية في العصور الوسطى، وخلال أكثر من مائة عام من الاستعمار الحديث، وليس أدل على نجاحه من انقلاب العالم الإسلامى كله تقريبا إلى صورة مشوهة معكوسة من معالم الغربي في الشرق أو في الغرب، وقيام جمهرة المثقفين حائلاً مانعا دون العودة إلى منابعه الأصلية، وطمس وتشويه طريقه الحقيقي الذي يجب المسير فيه.

---

[5]) الدكتور سعيد عاشور: الحروب الصليبية، ج ٢، ص ١٢٧٨.

[6]) عزت محمد إبراهيم: مجلة الوعي الإسلامي، العدد ١٨، أكتوبر ١٩٧٩.

ومنذ اقتناع الغرب بالحرب الفكرية لغزو البلاد الإسلامية؛ وهو دائب على اختلاق كل يوم أساليب جديدة للوصول إلى هدفه الأساسي؛ وهو القضاء على الإسلام؛ لأنه قوة هائلة تجمع بين البلاد العربية، وتجعلهم يتكاتفون ويقفون جميعا وقفة رجل واحد ضد الاستعمار؛ الأمر الذي يؤدي إلى تهديد مصالحه... بدءوا كما قلنا عن طريق رجالهم مباشرة أو عن طريق تلاميذهم الذين جندوهم لينخروا كالسوس في جسد الأمة العربية.. وبدءوا بتركيز هجومهم على اللغة العربية لأنها لغة القرآن.. فإذا استطاعوا أن يغيروا شكل اللغة العربية بتغيير حروفها مثلاً استطاعوا أن يباعدوا بين المسلمين، وبين القرآن الكريم فيصبح كتاب طقوس فقط لا يتلى إلا في المساجد كما حدث للغة القبطية عندما انحسرت وانتشرت اللغة العربية في مصر.

مصر تحمي الدين واللغة:

ولقد ظلت مصر الحصن الحصين لحماية اللغة العربية من التصدع، ولقد تعرضت اللغة العربية لمحنات منها عندما هجم التتار على بغداد، أو حرقوا كتبها وخربوا عمرانها، ولكن التتار هزموا على يد قطز سلطان المماليك بمصر في موقعة عين جالوت، ولم يستطع التتار أن يحققوا انتصارا قط... ومحنة أخرى عندما سقطت إسبانيا في أيدي الفرنج، وقد دفعهم حقدهم الغاشم إلى تدمير الحضارة العربية وآثارها في إسبانيا".. في هاتين النكبتين رزئت اللغة العربية وآدابها وعلومها بإحراق المؤلفات، وإغلاق المدارس، وتشريد العلماء والأدباء" (٧).

فإلى أين لجأ العلماء.. لجئوا إلى مصر والشام حيث وجدوا الأمان الذي دفعهم إلى الإنتاج.

والمحنة الثالثة عندما ابتلي الوطن العربي بالغزو التركي في أول القرن السادس عشر، وفتح السلطان سليم الأول مصر سنة ١٥١٧م، واستلب كثيرا من كتبها وآثارها فبعثها إلى القسطنطينية، واستولى على الأموال الموقوفة للعلم والتعليم؛ فتعطلت الحركة العلمية، ثم فرض الأتراك لغتهم الرسمية على مصر وغيرها، وجعلوها لغة التعليم والتفاهم مع الحاكمين والتقاضي في المحاكم.

"كان من نتائج ذلك أن ضعفت اللغة العربية، وذوى أدبها، ولم يحمها من العفاء أو من التصدع إلا كفالة مصر بها، ورعاية الأزهر إياها، وحرص الشعراء والكتاب والمؤلفين عليها، حتى انكشفت المحنة التي امتدت أربعة قرون، فنهضت الفصحى من سباتها، وجعلت تغذ سيرها لتعويض تخلفها عن الركب المسرع.

والمحنة الرابعة عندما احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣١م، واحتلت تونس سنة ١٨٨١، واحتلت إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢، واستولت إيطاليا على طرابلس سنة ١٩١١. ثم تقاسمت إنجلترا وفرنسا الغنيمة بعد الحرب العالمية الأولى، فاستولت فرنسا على سورية ولبنان، واختصت إنجلترا بالعراق وفلسطين وشرق الأردن، وحاول هؤلاء المستعمرون أن يوطدوا حكمهم، فبذلوا جهودا كثيرة لنشر لغاتهم، لتحل محل العربية؛ فتتقوض الدعامة الأولى في صحن العربية، ويسهل اندماج العرب بالمستعمرين (٨) ".

---

[7]) الدكتور أحمد الحوفي: الأهرام، ١٩٧٨/٤/١٧.

[8]) الدكتور أحمد الحوفي : الأهرام، ١٩٧٨/٤/١٧.

ودافعت مصر عن اللغة العربية في كل هذه النكبات.. وإذا كان هناك من الغربيين من يحاول أن يهدم اللغة العربية ليهدم معها الحضارة العربية؛ فإن هناك من المفكرين الغربيين من دافع عن الحضارة العربية؛ فالمفكر روجيه جارودى يرى أن أحد مظاهر سياسة التفرقة العنصرية التي يذيعها المستعمرون؛ هي أفكارهم في الدور الذي لعبته الحضارة العربية في تكوين العالم الحديث ([9]) "، فمؤامرة الصمت والتشنيع المنظم على هذه الحضارة إنما تهدف إلى تجاهل هذه الحقيقة الواقعة، وهي أن الشعوب العربية قد ساهمت في ظروف تاريخية معينة، بين العصر القديم وعصر النهضة مساهمة غنية في القدم الإنساني في كل ميادين الفكر والفن.. والكاتب الإسبانى إيبانز يقول:

"إن تجديد شباب إسبانيا لم يصلنا عن طريق الشمال مع القبائل البربرية؛ وإنما من الجنوب مع العرب الفاتحين. لقد كان الفتح العربى بعثة حضارية أكثر مما كان فتحا".

ويعلق فتحي خليل على كلمات جارودي فيقول: "ونحن أيضا نرى مع روجيه جارودي، أن بعث الحضارة والثقافة العربية لتساهم مرة أخرى في دفع موكب البشرية إلى الإمام ممكن؛ بل وحتمي. بشرط أن نحيي تراثنا ونطوره.. هذه بعض كلمات لبعض المفكرين الغربيين الذين يقولون الحقيقة العلمية دون تعصب".

ولكن فلننظر إلى أستاذ مصري هو الدكتور لويس عوض في كتاباته؛ فإننا نراه يهاجم الحضارة العربية، ويرجع كل شيء في حضارتنا العربية إلى أصول غير عربية.. فكل عالم أو فيلسوف أو أديب عنده لا بد أن يكون قد استقى علومه من اليونان وأوروبا.

وهذا ليس غريبا على الدكتور لويس عوض الذي تكون ذوقه وتدربت حواسه على كل ما هو غربي.. فكيف يتذوق الثقافة العربية، وهو الذي لم يقرأ حرفًا عربيا مدة اثني عشر عاما، ففي مقدمة ديوانه بلوتولاند يقول إنه قرأ هويتمان وإليوت ودي بليه في سن مبكرة، وكان من نتيجة معايشته للثقافة الغربية مهاجمته للعادات الشرقية، وتمثل ذلك في حديثه عن الرقص الإفرنجي الذي يفضله عن الرقص العربي، وذلك كما يقول عن نفسه: "لأنى متحامل على العوايد الشرقية، وبهاجم كل حاجة عندنا بمناسبة وغير مناسبة".

وفي دراسته عن رسالة الغفران ([10]) يقول: ".. ولكن رغم تشابه وصف المعري للجنة في صورتها العامة مع ما جاء في المصادر الإسلامية؛ نجد المعري في الوقت نفسه يضيف تفاصيل في وصف الجنة ومثلها في وصف الجحيم لا نجد لها أثرا في المصادر

---

[9]) فتحي خليل: دفاع من الثقافة العربية.

[10]) ملحق الأهرام، ١٩٦٤/١١/٢٧.

الإسلامية، وبعض هذه التفاصيل نستطيع أن نقول إنه ثمرة للابتكار الشخصي؛ لأنه مجرد مسح للخصوصيات على العموميات الواردة في الأدب الديني.. ولكن بعضه الآخر وهو هام وكثير؛ لا سبيل إلى تفسيره إلا بافتراض اطلاع المعري على ألوان من التراث الأجنبي". ويقول أيضا: ".. بالموازنة بين الشعراء في الآخرة، وهو ركن هام من أركان رسالة الغفران؛ تقليد بدأه أرسطوطاليس في الضفادع، ونسج عليه لوسيان بالموازنة بين الفلاسفة في الآخرة.. ومن الطبيعي أن نفترض أن رسالة الغفران تنتمي إلى هذه الفصيلة من الأدب، وأن هذا الموضوع من رواسب الأدب اليوناني في الأدب العربي".

ولقد وقع الدكتور لويس عوض في هذه الدراسة في أخطاء فادحة، منها قوله إن أبا العلاء المعري قابل راهبا في دير الفاروس علمه اليونانية، وقد أظهر الأستاذ محمود شاكر جهله في سلسلة من المقالات، نشرت في مجلة الرسالة وجمعت في كتاب ([١١]).

وقد بين الدكتور عبد العزيز الدسوقي ([١٢]) أيضا جهل الدكتور لويس عوض، وعدم فهمه للشعر العربي في بيت لأبي العلاء:

صليت جمرة الهجير نهارا   ثم باتت تغص بالصليان

والصليان بالياء - نبت ترعاه الإبل، والحديث عن الإبل التي ترعى هذا النبت في الظهيرة، ثم تغص به في الليل. كتب الدكتور لويس "الصلبان" بالباء، فصارت بالصلبان (جمع صليب).

وكما أرجع الدكتور لويس عوض أصول رسالة الغفران إلى التراث الأجنبي؛ نجده أيضا في دراسته عن ابن خلدون يرجع كل نظرياته إلى مصادرها الأجنبية، ويمحو عن ابن خلدون الابتكار.. فكما قال عن أبي العلاء إنه كان يعرف لغة اللاتين وثقافتهم؛ قال عن ابن خلدون إن نظرياته حول نشأة الدولة والدورات التاريخية، والعلاقة بين الدين والدولة؛ مدين بها لمارسيليو وأورسيوس اللذين سبقاه في تناول هذا الموضوع. وهكذا يواصل الدكتور لويس عوض مغالطاته الفادحة وتجنيه على التراث العربي.

هو واضح أن لويس عوض من هؤلاء الذين يطربهم رنين الأسماء الغربية، والموضوعات الغربية، ويوقفون أوقاتهم على درسها وتناولها. و "هم أقل الناس تزودا بآداب اللغة التي يخرجون بها مباحثهم، ويزعمون أنهم يحاولون إحياءها وتجديدها، وهم أكثر الناس

---

[11]) للاطلاع بشكل أكثر تفصيلاً يرجع الى كتاب "أسمار وأباطيل" للأستاذ محمود شاكر.

[12]) الدكتور عبد العزيز الدسوقي: التيار المشبوه مرة أخرى، مجلة العلوم، العدد الثاني، فبراير ١٩٦٦.

جهلاً بما يموج به تراث العربية من كنوز البيان والأدب، وبما يغص به ثبت كتابها ومفكريها من الأساتذة في كثير من فنون التفكير والأدب ([13]).

وبينما نرى أستاذًا مصريا مثل الدكتور لويس عوض يهاجم الحضارة العربية بهذا الشكل الواضح؛ نرى الكتاب الأجانب قد يعترفون بأصالة ابن خلدون؛ فجرستون بوتول في كتاب عن ابن خلدون ترجمه غنيم عبدون؛ يقرر أصالة ابن خلدون في تفكيره ومنهاجه الذي اتبعه في البحث، وكيف أنه كان سابقًا لزمانه..

لقد كان عنده إحساس بمقتضيات النقد السليم والطريقة الوصفية، كما أنه يستبعد أن يكون ابن خلدون قد تأثر بمن سبقه أو عاصره من الكتاب فيقول: "ولكن لا نستطيع وبالتأكيد أن نشير إلى كاتب يسير ابن خلدون على نهجه، لا من بين معاصريه ولا من بين سابقيه المحدثين أو القدامى؛ ذلك ولا وشيجة بينه وبين أي مفكر من العصر القديم يكون قد أخذ عنه، وعلق على مؤلفاته.. كما فعل فلاسفة العرب بالنسبة لكتاب المنطق لأرسطو".

ويقول أيضا: "ولم يعرف ابن خلدون المؤلفين الرئيسيين في العصر القديم، اللذين كانا خليقين أن يؤثرا فيه؛ فكتاب السياسة لأرسطو كان ما زال مفقودا في ذلك العصر، وكذلك كتاب جمهورية أفلاطون، ومن المؤكد أنه لم يعرف توسيد يد الذي غالبا ما نقارنه به".

إن الشرق كان في العصور الوسطى منارة العلم بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من مدنية وعلم، وكان الغرب في هذه العصور يغرق في ظلمات الجهل والفوضى، وكان حظه من الثقافة يومئذ ما تضمنته حصون الأمراء المتوحشين من الكتب، وما يعلمه بعض الرهبان والمساكين من قشور العلم".

وقد جاء في حديث محمد محمد عبد الفتاح عن المستشرقين ودورهم في دراسة الحضارة الشرقية، واستعراض مظاهر ازدهار الحضارة الشرقية: "وقام ملوك صقلية بتشجيع اقتباس واحتذاء هذه الحضارة، حتى إنهم اتخذوا من اللباس العربى زيا لهم، واستعملوا العرب والمسلمين قادة لجيوشهم، وطباخين لطعامهم، حتى شعارهم اتخذوا شعارا إسلاميا، كما حكى ابن جبير عن ملكهم "غليوم" سنة ١١٨٧، بل إن روجر "ملك صقلية النورماندي" جمع عددا من علماء العرب، ومنهم العالم الجغرافي الإدريسي؛ للتدريس لقومه، وقام أسلافه بتشجيع ترجمة علوم العرب إلى لغة قومه، حتى حدثت في هذه الجزر في جنوب إيطاليا ظاهرة التأثير المتبادل، وبالتالي أصبحت إيطاليا مركزا لنقل الحضارة العربية إلى أوروبا".

[13]) محمد عبد ا   عنان: الأدب القومي يغمط حقه، ملحق السياسة الأدبي، العدد ٢٤، عام ١٩٢٢.

ويقول أيضا: "بل إن البابوات الأوروبيين ورهبانهم شربوا من معين هذه الحضارة الإسلامية، ومنهم البابا "سلفستر" الثاني، الذي درس في إشبيليه وقرطبة زمنًا، واتهم بالسحر بسبب ما حمل إلى قومه من علوم لا عهد لهم بها....، وكذلك الراهب "روجر بيكون"، الذي أوصى قومه بتعليم العربية، وقال: إن ا يؤتي الحكمة من يشاء، ولم يشأ أن يؤتيها اللاتين؛ وإنما آتاها الإغريق واليهود والعرب، ويقول أيضا إن تأثير الحضارة الشرقية لم يقف عند حد التأثر بالعلوم؛ بل وصل إلى الجانب الأدبي نفسه، فقد أخذوا القافية والعروض من الشعر العربي، التي لم تكن معروفة من قبل في الشعر الغربي، كما أخذوا الشعر الغنائي الرقيق من الشعر العذري، وسمي لديهم بالتروبادور، وأيضا كانت الطبيعة مصدر إلهامهم كما كانت عند شعراء الأندلس، وكان لترجمة كليلة ودمنة وقصص ألف ليلة ورسالة الغفران للمعري وغيرها؛ تأثير واضح على ما ألفه لافونتين في أشعاره على لسان الحيوان والطير، وكذلك قصص بوكاشيون الإيطالي، والكوميديا الإلهية لدانتي الإيطالي، وكذلك ديوان الشرق والغرب لجوته الألماني، ومسرحية "السيد" لكورني الفرنسي، ومسرحية " باجازيت" لراسين الفرنسى أيضا.

"وحينما ظهرت الرسالات السماوية الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام)؛ اتصف المسلمون بالتسامح مع الأديان، وازدهرت الحضارة العربية الإسلامية في البلدان التي فتحها العرب المسلمون من أجل نشر الإسلام، وفي الوقت الذي نسمع فيه عن الخراب والتدمير الذي أحدثته الغارات الجرمانية نتيجة للغزوات البربرية التي قام بها هؤلاء، وما أحدثته من دمار لتلك البلدان؛ نجد أن البلاد التي فتحها العرب واستقروا فيها تتحول إلى مراكز حضارية كبرى يقصدها طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء العالم المعروف آنذاك؛ من أجل التزود بالعلم والمعرفة ([١٤]).

تأثر الأوروبيون بالكثير من العادات والتقاليد الإسلامية العربية، التي كانت سائدة في ذلك الوقت؛ فنجد النورمان مثلاً في صقلية يستخدمون المظلة والحجاب، والتي أخذت من الفاطميين في مصر، ويروي أسامة بن منقذ في كتابه "الاعتبار"، وهو أحد فرسان وشعراء إمارة شيزر ببلاد الشام، وكان معاصرا للحروب الصليبية؛ يروي عن حادثة تبين مدى تأثر الغرب بالمسلمين، فيذكر تأثر الغرب بعادات الشرق الإسلامي خالصا في المأكل والملبس، فيقول عن أحد أصدقائه إنه زار أحد فرسان الصليبيين بأنطاكية؛ فأحضر الفارس الصليبي

[14]) د. سعيد عاشور: أوروبا والعصور الوسطى.

مائدة حسنة، وقال له: "كل طيب النفس فأنا ما آكل من طعام الإفرنج، ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن، ولا يدخل داري لحم خنزير".

ولا يقل التأثر عند هذا الحد، ولكن نرى أن الغرب يأخذ عن العرب أيضا بعض النظم الاجتماعية التي كانت سائدة عند العرب في ذلك الوقت، ومن هذه النظم ما يخص المنشآت الاجتماعية مثل البيمارستانات؛ وهي عبارة عن كنائس معدة لمرضى النصارى؛ مثل مارستانات المسلمين. ومن الجدير بالذكر أن نظام البيمارستانات انتقل عن طريق صقلية زمن النورمان، ثم أنشأوا بعد ذلك مدرسة للطب في بالرمو في عصر الإمبراطور فردريك الثاني، وانتقل بعد ذلك هذا النظام إلى الغرب الأوروبي، ثم تطور ليصبح جامعة للطب في سالرنوا. والبيمارستان في الإسلام هو مكان الاستشفاء، وهو نظام عرفه المسلمون منذ أيام هارون الرشيد([15]).

وهناك ما يؤكد أيضا مدى الجهل الذي عاش فيه الأوروبيون في ذلك الوقت، وخاصة في النواحي الطبية؛ فيروي أسامة بن منقذ في كتابه السابق الإشارة إليه مدى التأخر والجهل الذي عاش فيه الأوروبيون الذين حضروا إلى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ومن هذه الإشارات أن صاحب المعيطرة (وهي قرية تقع عند منبع نهر إبراهيم شمال لبنان) كتب إلى عم أسامة بن منقذ يطلب منه إرسال طبيب يداوي مرضى من أصحابه، فأرسل له طبيبا نصرانيا يقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له: "ما أسرع ما داويت المرضى". قال: أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملة، وامرأة قد لحقها نشاف؛ فعملت للفارس لبيخة، ففتحت الدملة وصلحت وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجى فقال لهم: هذا ما يعرف شيئًا يداويهم. وقال للفارس: أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة. قال: أحضروا لي فارسا قويا، وفأسا قاطعا، فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب، وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها. فضربه (وأنا أراوده) ضربة واحدة ما انقطعت، وضربه ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته، وأبصر المرأة فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها احلقوا شعرها، فحلقوه وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخروع فزاد بها النشاف، فقال: الشيطان قد دخل في رأسها، فأخذ الموسى وشق رأسها صليبا، وسلخ وسطه، حتى ظهر عظم الرأس، وحكه بالملح فماتت في وقتها. فقلت لهم: هل بقي لكم إلي حاجة؟ قالوا: لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه".

ويعرض الدكتور سعيد عاشور في كتابه حضارة أوروبا في العصور الوسطى للمعابر الأساسية التي انتقلت عن طريقها معارف وحضارة الإسلام إلى أوروبا، وهي ثلاثة معابر.

---

[15]) سعيد عاشور: حضارة أوروبا في العصور الوسطى.

"وأول هذه المعابر كانت بلاد الشام، التي اشتعلت على أرضها، ودارت الحروب الصليبية؛ حيث تقاتل فيها أهل الغرب الأوروبي المسيحي، بما يحملون من جهل تام بمختلف نواحي المعرفة مع أهل الشرق الإسلامي، وما تمتعوا به من حضارة زاهية، وقد أتاحت فترات السلام بين المعارك الفرصة للعلماء والمترجمين الغرب الذين جاءوا مع الحملات الصليبية أن يقوموا بحركة واسعة لترجمة المعارف الإسلامية، وينقلوها للغرب الأوروبي.

أما المعبر الثاني؛ فقد كان جزيرة "صقلية"؛ حيث رسخت فيها أقدام الحضارة الإسلامية منذ أن فتحها العرب في أوائل القرن التاسع الميلادي، وقد كان موقع جزيرة صقلية وقربها من إيطاليا؛ من العوامل الهامة التي أدت إلى سهولة انتقال المعارف الإسلامية منها إلى إيطاليا، ومن إيطاليا إلى بقية بلدان أوروبا. وقد شجع ملوك النورمان وأباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة حركة الترجمة من العربية واليونانية إلى اللاتينية.. ومن الجدير بالذكر أن روجر الثاني حاكم صقلية زمن النورمان قد احتضن الكثير من علماء المسلمين، وفي مقدمتهم يأتي العالم المعروف الشريف الإدريسي الجغرافي المغربي المشهور؛ حيث اتخذه روجر الثاني وزيرا له، وكلفه بإعداد مؤلف باللغة العربية عن جغرافية العالم، وقد استطاع بالفعل هذا العالم المشهور أن يؤلف كتابه المعروف "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق".

أما المعبر الثالث والأخير؛ فكان الأندلس، فيما يطلق عليه الآن إسبانيا؛ حيث ازدهرت بها الحضارة العربية الإسلامية تحت حكم الأمويين، ثم الدولة الأموية الثانية، والتي بلغت فيها الحضارة الإسلامية ذورتها؛ حيث ظهور الكثير من الشخصيات الحضارية في ذلك الوقت.. نذكر منهم على سبيل المثال عباس ابن فرناس، والذي حاول الطيران خلال تلك الفترة التاريخية.

الحضارة العربية حضارة عريقة، ولها تأثير بعيد في الغرب، والغربيون أنفسهم يعرفون ذلك تمام المعرفة.. إنهم يعرفون الخوارزمي واختراعه علم الجبر، وعمر الخيام وحل المعادلات ذات الثلاث مجهولات، وأبو الوفا واكتشافه حساب المثلثات، والفارابي الذي اكتشف اللوغريتمات، ويدرسون ابن سينا والرازي الذي وضع تصنيفًا للأمراض. ولقد أعيد طبع موسوعته الطبية التي ترجمها فراجوت إلى اللاتينية أربعين مرة ([16])، وأعيد طبعها في عهد النهضة عام ١٥٢٠، وفي فرانكفورت عام ١٥٨٨.

---

16) كما يذكر الأستاذ فتحى خليل في كتابه: دفاع عن الثقافة العربية.

النيل من اللغة كمدخل للهجوم على الدين :

ومظهر الحضارة اللغة، واللغة العربية أثبتت قدرتها على استيعاب مظاهر الحضارة، متحدية كل المدعين الذين يدعون أن اللغة العربية قاصرة عن استيعاب صور الحضارة والتقدم، في حين أنها تتسع للمصطلحات الطبية والفلسفية، ويعتبر هذا أبلغ رد على هؤلاء المدعين الذين يقصر فهمهم عن الإحاطة بأسر اللغة العربية؛ فيكيلون الاتهامات لها، ويتهمونها أحيانًا بالتعقيد، وأحيانًا بالجمود، ولكن "اللغة نفسها بريئة من هذه التهمة، ومن الإنصاف لها، ومن منطق تاريخها، وطبيعتها؛ نقول إنها لم تكن جامدة ولا صعبة، ولا عاجزة عن الوفاء بالمطالب الحضاري؛ فعندما عم دور الإسلام اتسعت اللغة للقرآن الكريم على رحابة ما احتواه ودقته، وأصبحت في سرعة لا نظير لها اللغة الأصلية لأكثر البلاد التي دخلتها مع الإسلام، كما صارت لغة العلم والأدب قرونًا عدة في البلاد المفتوحة، واستطاعت خلال حكم العباسيين أن تتطور في انفتاح عجيب عن طريق الفكر العربي الرحب الأفق، وفي مرونة كبيرة عن طريق التعريب والاشتقاق، وأن تفوق غيرها من اللغات التي كانت منتشرة آنذاك".

اللغة العربية ومعطيات العصر:

ويمكن أن نقول إن المحاولات المستمرة التي تطلع علينا بين حين وآخر؛ محاولات منها ما هو نتيجة تخطيط محكم لتحطيم اللغة العربية؛ لأنها السبيل للنفاذ إلى القرآن، وما كل المحاولات التي نقرأ عنها لتطوير وتغيير حروف الكتابة؛ ما هي إلا محاولات مغرضة ليباعد أصحاب هذه الدعوات بين القرآن وبين المسلمين؛ فيصبح بعد فترة طويلة كتابا غريبا يتلى في المناسبات الدينية، ولكن غاب عن هؤلاء أن ا سبحانه وتعالى يحفظ قرآنه؛ ليظل كما أنزله سبحانه وتعالى حتى تقوم القيامة.. وفريق آخر يقحم نفسه في هذه الدعوات بحسن نية من نيات التحضر، وباسم الدراسة العلمية التي درسها في أوروبا. وأمثال هؤلاء بدلاً من أن يبذلوا جهدا في دراسات تضيف جديدا إلى اللغة العربية (كمحاولة ترجمة المصطلحات العلمية مثلاً في الكليات العلمية ليسهل فهمها على الطلبة)؛ تجدهم يسيرون في إظهار نقائض اللغة العربية وقصورها، ولا يعلمون أن القصور في أنفسهم؛ لأنهم لا يعلمون أن اللغة العربية استطاعت أن تحتوي المصطلحات العلمية، وأن تستوعب التفكير الحضاري الحديث؛ لأنها لغة مرنة تقبل التطور والزيادة والنمو والاشتقاق والمجاز والنحت والتعريف([١٧]).

---

[17]) الدكتور محمد عبد القادر أحمد: الأهرام، ١٨٧٩/١٠/١٣.

ويتحدث الدكتور محمد عبد القادر أحمد عن تدريس العلوم باللغة العربية، في الجامعات العربية؛ فيبين أنه أمر ليس بالعسير، ويتطلب منا إنشاء جهاز لترجمة ما يصدر من كتب علمية ودوريات في مجالات العلوم المختلفة، كما يتطلب منا مراجعة ما كتبه العرب في الطب والهندسة والحساب والفلك والعلوم، وإحصاء ما وضعوه من مصطلحات لهذه العلوم. فعلى سبيل المثال نجد في كتاب "القانون" لابن سينا كثيرا من المصطلحات العربية في الطب، ويمكن أن يستفاد بها في الوقت الحاضر".

ويدلل الدكتور محمد عبد القادر على قدرة اللغة العربية على استيعاب التفكير العلمي بالمحاولة التي قامت بها بعض جامعات البلاد العربية التي تستخدم اللغة العربية في الكليات العلمية منذ أكثر من نصف قرن بمنتهى النجاح.

وهذا رد واضح على دعاة التجديد الذين يأتون من الخارج، يحملون أفكارهم التطورية المشوهة، ورد قاطع على ادعاءاتهم بقصور اللغة العربية عن مواكب ركب الحضارة المتطور.. ليتهم يعلمون أنه بدلاً من التشدق بما حملوه من أفكار من الخارج، والوقوف موقف المتفرج؛ كأنهم ليسوا من أبناء هذا البلد.. ليتهم يكفون عن الكلام الذي لا فائدة منه، ويبذلون الجهد العلمي في ترجمة المصطلحات الأجنبية ليسهل تدريسها وتحل الطلاسم أمام الطلاب، وأمثال هؤلاء المجددين المتأثرين بالغرب وثقافته وفنونه، ويقول عنهم المنفلوطي في مقدمة النظرات: "أعجمي يظن اللغة العربية حروفًا وكلمات، وهو لا يعرف منها غيرها؛ فينطق بشيء هو أشبه الأشياء بما يترجمون من اللغات الأعجمية ترجمة حرفية، فإن نعيت عليه غرابة أسلوبه واستعجامه والتواءه على الفهم؛ كان مبلغ ما يفصح به عن نفسه أن المعاني العصرية والخيالات الحديثة لا يستطاع إلباسها الأكسية البدوية والأردية العربية؛ كأنما هو يظن أن المعاني والخواطر خطط وأقسام وأنصبة، وسهام؛ هذا للشرق، وهذا للغرب، وهذا للعرب وهذا للعجم، أما الحقيقة التي لا ريب فيها؛ فهي أن الرجل لا ينتزع تلك المعاني من قراءة نفسه، ولا يصور فيها صورة عقله؛ وإنما هو مترجم قد عثر بتلك المعاني في اللغة الأعجمية التي يعرفها، لاصقة بأثوابها الأصلية، عجز عن أن ينزع عنها أثوابها اللاصقة بها، فنقلها اليوم كما هي، إلا ما كان من تبديل حرف بحرف أو لفظ بآخر. من حيث يظن أنه يهتف بشيء قام في نفسه، أو يقضي بخاطر من خواطر قلبه" حقيقة أن من دعاة التجديد من هم مثل الببغاوات يرددون ما حشيت به رءوسهم في الجامعات الأوروبية، ثم يأتون يتعالون على وطنهم، ولا هم لهم إلا كشف نقائصه، ويتبرءون منه ويأنفون مما يرونه من مظاهر الحياة التي تختلف عن مظاهر الحياة في أوروبا؛ فيعيشون على أرضه بأجسادهم، غرباء عنه بأرواحهم؛ لأنها هائمة في سماوات مظاهر الحضارة التي شاهدوها في الخارج.. وأمثال

هؤلاء يعتبرون معاول هدم للوطن وعنصرا فعالاً – بطريق غير مباشر ودون أن يشعروا - لتنفيذ خطط هدم الحضارة العربية. وأذكر هنا قصة أوردها عبد ا النديم في مجلته "التنكيت والتبكيت" عن الفلاح الذي تعلم ابنه في الخارج.. وعندما حضر إلى أرض الوطن.. ذهب والده لاستقباله.. فعندما رآه أخذه بالأحضان وقبله فاستنكر الابن هذا السلوك من والده، وخاطبه بقوله: أنتم يا شرقيون عندكم العادات الرديئة هذه.. وعندما ذهب إلى بيته في القرية تأفف ونسي اسم البصل، وقال: ماذا تسمونه عندكم؟ ما زالت هذه النماذج موجودة بيننا ولم تتغير؛ ولذلك ظل الريف كما هو لم يطرأ عليه أي تطوير؛ لإحجام أبنائه عن مد يد العون له.. إن أمثال هؤلاء في حاجة إلى التصدي لهم حتى يفيقوا من غفوتهم، ويثوبوا إلى رشدهم ليكونوا دعاة حق وخير لبني وطنهم.

دعاوى التطوير

عرفنا أن الهجوم على الإسلام قديم منذ ظهر الإسلام؛ لأنه مظهر القوة للعرب ومصدر حضارتهم.. ولأن الإسلام كتابه القرآن، والقرآن لغته العربية؛ لذا شدد المهاجرون حملاتهم على اللغة العربية التي يتكلم بها ١٠٠ مليون مسلم في البلاد العربية وتوحد بينهم.. يهدفون من راء محاولاتهم القضاء على اللغة العربية، وقطع الصلة بينها وبين أبنائها ليقضوا على القرآن، والإسلام مظهر القوة للعرب..

(الدعوة إلى العامية)

وإذا استعرضنا المحاولات الهدامة؛ نجد أنها بدأت في مجلة المقتطف عام ١٨٨١، عندما اقترحت كتابة العلوم بلغة حديثة، وعادت القضية مرة أخرى عام ١٩٠٢ عندما ألف القاضى الإنجليزي ولمور كتابا أسماه "لغة القاهرة"، وضع فيه قواعدها واقترح اتخاذ لغة القاهرة لغة للعلم والأدب، كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية.

وكتب حافظ إبراهيم في هذه المناسبة قصيدته المشهورة التي يقول فيها متحدثًا بلسان اللغة العربية:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي

وناديت قومي فاحتسبت حياتي

رموني بعقم في الشباب وليتني

عقمت فلم أجزع لقول عداتي

وسعت كتاب ا لفظًا وغاية

وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة

وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر في أحشائه الدر كامن

فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

أيطربكم من جانب الغرب ناعب

ينادي بوأدي في ربيع حياتي

ولو تزجرون الطير يوما عرفتم

بما تحته من عثرة وشتات

سقى ا   في بطن "الجزيرة" أعظما

يعز عليها أن تلين قناتي

وتعود قضية تجديد اللغة العربية مرة أخرى للظهور عام ١٩٢٦، عندما دعا السير وليم ولكوكس إلى هجر اللغة العربية، وأراد أن يضع دعوته موضع التنفيذ؛ فقام بترجمة الإنجيل إلى اللغة المصرية، وأيده في هذه الدعوة سلامة موسى، الذي قال كلمته المشهورة: "إن الأوروبي يقرأ لكي يفهم أما نحن فنفهم لكي نقرأ". ولكن هذه الفكرة هوجمت وكشف عن دوافعها السياسية.. ولكنها كانت سببا في جذب نفر من هؤلاء الداعين إلى الجديد.. لقد غزت هذه الدعوة المجمع اللغوي عن طريق مجموعة مقالات عن اللهجة العربية العامية، في المجلة التي تصدر عن المجمع، كتبها "عيسى إسكندر معلوف" (الجزء الأول، أكتوبر ١٩٣٤- الجزء الثالث- أكتوبر ١٩٣٦، الجزء الرابع – أكتوبر ١٩٣٧)، كما نشر مقال بعنوان: "اللغة الفصحى والعامية" في مجلة الهلال، عدد ١٥ مارس ١٩٠٢؛ أعلن فيه أن اختلاف لغة الحديث عن الكتابة من أسباب تخلفنا.. وقال إنه يمكن الكتابة باللغة العامية. وتقدم عبد العزيز فهمي عضو المجمع اللغوي عام ١٩٤٣ باقتراح كتابة العربية بالحروف اللاتينية، ولقد لاقى هذا الاقتراح آنذاك رضا عضو المجمع هـ. أ. جب الإنجليزي الذي يقرر في كتابه "إلى أين يتجه الإسلام" عند كلامه عن الوحدة الإسلامية: "إن من أهم مظاهرها الحروف العربية التي تستعمل في سائر العالم الإسلامي، واللغة العربية التي هي لغته الثقافية الوحيدة، والاشتراك في كثير من الكلمات الاصطلاحية العربية الأصل.

ولا تهدأ الدعوة خلال السنوات التالية، فنرى في مجلة الرسالة الجديدة عدد ١٧ أغسطس ١٩٥٥ مقالاً يقترح فيه صاحبه يوسف أوغسطس؛ طريقة جديدة لكتابة اللغة العربية.. ويقرر أن هذا الاقتراح خطر له منذ ربع قرن عندما رأى الطباعة المعقدة، وما تسببه من غموض وارتباك، ولكن كثرة أعماله أخرت هذا الاقتراح.. ولكن الفكرة ظلت تراوده حتى عام ١٩٣٩؛ حيث تفرغ لوضع طريقته، وانتهى منها في آخر عام ١٩٣٥، وقدمها للمجمع اللغوي في آخر عام ١٩٣٦. وكان المجمع قد تولى هذه المهمة في يناير عام ١٩٣٨، ثم وضع لها عام ١٩٤٤ جائزة قدرها ألف جنيه". وتتلخص طريقته في إصلاح الطباعة العربية المعقدة الصعبة للجميع، والمضللة في القراءة؛ لجعلها بسيطة طبيعية.. ويعتبر أوغسطين طريقته "ثورة على فوضى الطباعة، وما أشاعته من فساد في ألفاظ الضاد قراءة وتكلما، حتى إنه ليقل - بل يندر أن يوجد بين القارئين أو المتكلمين بالعربية من يستطيع أن

يقرأ أو يرتجل الكلام، ولا يقع في اللحن كثيرا أو قليلاً. أما طريقتى هذه فإنها تعصم القارئ من اللحن والخطأ حتى لو لم يكن فاهما ما يقرأ".

محاولة مغرضة في تطوير النحو :

وإذا كان الهجوم على اللغة العربية قد اتجه إلى طريقة الكتابة أو الدعوة إلى العامية؛ فإننا نرى أن هذا الهجوم لم يقف عند هذا الحد، ولكن اتخذ طريقه إلى النحو؛ فنرى من ينادي بتبسيط قواعد النحو، وإهمال كل ما كتبه القدماء، ومن هؤلاء ما كتبه يعقوب عبد النبي في مجلة الرسالة الجديدة (العدد ١٤ - مايو ١٩٥٥) عن النحو ومشكلاته في مقال بعنوان: "جناية النحاة على اللغة". لقد بدأ يعقوب عبد النبي مقاله بذكر الشكوى من صعوبة نحو اللغة العربية وصرفها، ويرجع ذلك إلى التفاسير الطويلة التي لا لزوم لها، واتخذ من ابن مالك والسيوطى مثالين يصب عليهما سخريته، فيقول عن ابن مالك: "لقد كان هم ابن مالك أن يجري وراء القراءات الشاذة، ويتعهد الأمثلة النادرة واللغات البائدة؛ لكي يقيم لكل منها بناء خاصا وقواعد خاصة، حتى يفسد قياس الباب المطرد، ويهدم الأصل العام ويحيله إلى فروع من فروع، وشذوذ من شذوذ، واستثناء، وهكذا صنع ابن مالك بالنحو لكي يقيم البرهان على أنه العالم الأوحد، والمحقق النادر المثال". فنحن نرى هنا أنه يسخر من ابن مالك والسيوطي الذي يتهمه أيضا بالتعالي والكبرياء فيقول: "وإذا كان ابن مالك مفتونًا بنفسه ومتعاليا على النحاة؛ فإن السيوطى كان مفتونًا بما وعته حافظته من علوم الأولين والآخرين".

فيعقوب عبد النبي يقال من جهد عالمين جليلين يعتبران من علامات تراثنا العربي، وحديث يعقوب عن تيسير النحو لتعقيده فيه مبالغة؛ لأن قواعد اللغة العربية تعتبر من أيسر قواعد اللغات الإنسانية، وهذا ما يؤكده الدكتور علي عبد الواحد في مقال له في مجلة الرسالة (عدد ٨٠).. إننا لا نجد من بين قواعد اللغات الإنسانية الراقية جميعها ما وصل في طبعه وإفراده، وقلة أصوله ويسر مأخذه، وسهولة الإحاطة به؛ إلى ما وصلت إليه قواعد النحو في العربية الفصحى".

ولقد تصدت لهذه الدعوات أقلام مخلصة غيور على اللغة العربية، غيور على دينها مدركة تماما أهداف هذه الدعوات المسيئة بما تنطوي عليه من خبث.

ولقد كان خليل اليازجي واحدا من هؤلاء الذين انبروا للرد على اقتراح المقطم عام ١٨٨١.

وكذلك زكي مبارك الذي عاد من أوروبا محافظًا على مبادئه وأخلاقه وتراثه.. وظل مخلصا للغة العربية والعروبة؛ فجند قلمه للدفاع عن اللغة العربية وتفنيد مزاعم ولككس وسلامة موسى: "ولم يحصل على أي نيشان أو لقب من الألقاب التي كانت تغدق على ما يسميهم الغرب سفراء الفكر في العالم العربى". وكتب المرحوم طاهر الطناحي مقالاً بعنوان: "هل يمكن إصلاح الحروف العربية؟" في مجلة الهلال- أول مايو عام ١٩٤٣"، يرد فيه على جميع الاقتراحات التي قصد بها تغيير الخط العربي، ويثبت في مقاله فساد هذه المقترحات.. وكذلك نرى الدكتور محمد محمد حسين في كتابه "الاتجاهات الوطنية" يعرض في كتابه هذه الدعوات الهدامة، وأثرها في المجتمع، ويرد على هذه الدعوات، وخاصة التي تتصل باللغة العربية؛ حيث يقرر أن "الواقع الملموس يكذب كل دعاوى الهدامين، والتاريخ أصدق من كل ما يكتبون؛ فقد استطاعت العربية البدوية أن تساير الحضارة في بغداد، ولم تهزم أمام الفارسية أو اليونانية، واستطاعت أن تساير ألوانًا من الحضارات في خلال ثلاثة عشر قرنًا أو أكثر، في بيئات متباينة أشد التباين، وصمدت أمام الغارات المدمرة وخلال الاحتلال الأجنبي الطويل".

وسلسلة الدعوات المطالبة بتجديد اللغة وتبسيط النحو والكتابة بالعامية لا تنتهي، ويهمنا أن نذكر أحدث المحاولات في هذا المضمار؛ وهو كتاب صدر في نوفمبر ١٩٥٦ للدكتور لويس عوض؛ وهو كتاب "مذكرات طالب بعثة"، كتبه الدكتور لويس بالعامية.. ولماذا نشره في ١٩٦٥ رغم أنه كتبه عام ١٩٤٢؟... والإجابة على هذا التساؤل نجدها في مقدمة الكتاب؛ حيث يقول إنه قام بهذه التجربة لحل مشكلة الازدواج اللغوي التي أقلقته كثيرا، مستعملاً حقه الطبيعي، باعتبار "أن التجربة حق أولي من حقوق الإنسان، طبيعي ومقدس ولا يقبل التجزئة". والحقيقة أن هذه المذكرات كتبها الدكتور لويس ليفي بقسمه الذي أقسمه بين أشجار الدردار عند الشلال بكامبردج، وهو ألا يخط كلمة واحدة إلا باللغة المصرية. وأعتقد أن في هذا تفسير واضح لنشر الدكتور لويس لمذكراته المكتوبة باللهجة العامية منذ عام ١٩٤٢.

الحقيقة إن الدكتور لويس عوض مصاب بالقلق المرضي، أو على حد قول الدكتور عبد العزيز الدسوقى؛ إنه رجل مشكل يعيش في مأساة يعرف مصدرها في أعماقه دون أن يفصح عنها، ولكن هذه المأساة تكون مواقفه وكتاباته، وهذه النقطة في حاجة إلى محلل نفسي مختص، ولا أصلح" ([١٨]).

[18]) الدكتور عبد العزيز الدسوقي: التيار المشبوه مرة أخرى، مجلة العلوم، العدد الثاني، فبراير ١٩٦٦.

ويدلل الدكتور عبد العزيز الدسوقي على حالة الدكتور لويس عوض المرضية بقول الدكتور لويس عوض نفسه في كتابه "مذكرات طالب بعثة": "أنا واحد من الناس على فكرة دايما معقد أعمل أي عمل.. في حدود المعقول.. حالة نفسية ربنا يحميك منها.. وكما أن حدود المعقول عندي مطاطة قوي لدرجة أن بعض الناس المتصلين بى بيفكروا أحيانًا أني مجنون مثلاً؛ تبقى تلاقينى أحب السهر للصبح من غير أي غرض".

ومن المحاولات أيضا الموجهة إلى اللغة العربية محاولة جديدة عن كيفية استخدام العقل الإليكتروني في تحليل الجملة العربية، وهي محاضرة ألقاها الدكتور ولسن بشاي بكلية الآداب جامعة القاهرة في شهر يوليو عام ١٩٧٤، والمحاضر مهاجر يعمل أستاذًا بأمريكا.

بدأ الدكتور ولسن محاضرته بعرض تاريخي للبحث اللغوي فقسمه إلى أربعة عصور:

- العصر الأول من ٥٠٠ ق. م. إلى ١٠٠ بعد الميلاد، وهذا هو عصر التفكير الفلسفي.
- العصر الثانى من ١٠٠ إلى ١٧٦٨، وهذا هو عصر الوصف الذهني.
- العصر الثالث من ١٧٦٨ إلى ١٩٣٩؛ وهذا هو عصر الوصف المقارن.
- العصر الرابع من ١٩٣٠ حتى الآن؛ وهو عصر الوصف الموضوعي.

وقسم تاريخ تطور النحو العربي إلى أربعة عصور:

- العصر الأول: عصر التقعيد؛ أي ما قبل سيبويه.
- والعصر الثاني عصر القياس؛ أي من سيبويه حتى المبرد.
- والعصر الثالث هو عصر التعليل؛ أي من المبرد وثعلب إلى الفارسي، والعصر الرابع هو عصر التفكير النحوي بفروعه المختلفة.

والدكتور ولسن بعد هذه التقسيمات يرجع أصول النحو العربى إلى كتاب ألفه ديونيسيوس تراكس "فن اللغة". وتراكس -كما يقول هذا- من نحاة الإسكندرية، وهو يوناني، وترجم الكتاب إلى السريانية والأرمينية، ويقول الدكتور ولسن إن هذا لكتاب لا بد أنه ترجم إلى العربية، ولكن لم يعثر بعد على هذه الترجمة. ويذكر الدكتور ولسن أنه: "مما هو غني عن البيان أن كل عصور تطور النحو العربي تقع خلال العصر الثاني من عصور تطور البحث اللغوي العام الذي أشرت إليه سابقًا، وهذا العصر هو عصر الوصف الذهني الذي بدأ بالنحوي تراكس الإسكندري عام ١٠٠م، وظل ما يقرب من ألف وستمائة عام يمثل التفكير اللغوي التقليدي عند أكثر النحاة في العالم".

ونتبين من كلام الدكتور ولسن أنه يريد أن يرجع النحو العربي إلى أصول غير عربية؛ فهو يرجعه إلى ديونيسيوس تراكس، هذا المجهول الشخصية. وبعد أن يلقي الدكتور ولسن بأفكاره المغرضة يبدأ في الحديث عن نظريته الجديدة؛ وهي نظرية الوحدات النحوية التركيبية المسماة، وهي تعتمد أساسا على "حصر وتحديد التركيبات المختلفة للجمل العربية بطريقة وصفية بحتة، يمكن لأي عقل إلكتروني تخزينها، وإخراج أمثلة منها حسب الطلب".

ويذكر أن عملية التحليل النحوي هذه تتضمن أربع عمليات هامة هي:

١- عملية التقسيم . ٢- عملية المبادلة.

٣- عملية المقارنة . ٤- عملية المفارقة.

وأهداف هذه العمليات هي تبيين خمسة معالم لعلاقات الجملة المختلفة هي:

١- علاقة الإعراب . ٢- علاقة المطابقة.

٣- علاقة العطف . ٤- علاقات الحشو.

٥- علاقات ترتيب الكلام.

وهكذا يعرف دعاة التجديد طريقهم لبث أفكارهم عن طريق الوسائل العلمية في دراسة اللغة العربية.. ولقد تصدى للدكتور ولسن هذا مجموعة من الأساتذة المصريين، وقد ذكر لي أحد الأساتذة حضر المحاضرة واشترك في المناقشة؛ أن الدكتور ولسن عجز عن الرد على أسئلتهم، ولم يصمد أمام مناقشاتهم العلمية التي كشفت عن كثير من المغالطات.

ومن المحاولات حسنة النية؛ محاولة صيدلي سوري اسمه صبحي السبكي، الذي قضى فيها سنوات طويلة في البحث عن خط جديد ليسهل تعليمه في المدارس وسماه الخط السبكي.

وقد حضر صاحب الاقتراح إلى القاهرة لمقابلة المسئولين في وزارة التربية والتعليم؛ لشرح فكرته، ولكن لم تلق قبولاً وعاد بخفي حنين. بعد هذا العرض للمحاولات التي بذلت لهدم اللغة العربية؛ نرى أنها قد باءت كلها بالفشل، وبقيت لغتنا العربية رغم محاولات المغرضين لهدمها، والنيل من الإسلام.. بقيت لغتنا العربية شامخة تتحدى هذه الدعوات وأصحابها، وكيف يصل هؤلاء المدعون إلى بغيتهم وا سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿**إنا نَحن نَزلْنَا الذكْر وإنا له لحافِظُون**﴾. ويقول جل شأنه: ﴿**يريدون أَن يطْفِئُوا نُور ا ِ بِأَفْواهِهم ويأْبى ا ُ إِلا أَن يتِم نُوره ولَو كَرِه الْكَافِرون**﴾ (١٩)

---

19) التوبة، آية ٣٢.